فصل آخر
[الفرق بين التمثيل الدقيق والتعقيد]

وإن كان مما مضى إلا أن الأسلوب غيره، وهو أن المعنى إذا أتاك ممثلاً فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة، وتحريك الخاطر له والهمة في طلبه. وما كان منه ألطف، كانت امتناعه عليك أكثر، وإباؤه أظهر، واحتجابه أشد.

ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالميزة أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف، وكانت به أضن وأشغف، وكذلك ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظمأ كما قال:

وهنَّ ينبذن[1] من قول يصبن به مواقع الماء من ذي الغلة الصادي

وأشباه ذلك مما ينال بعد مكابدة الحاجة إليه، وتقدم المطالبة من النفس به، فإن قلت: فيجب على هذا أن يكون التعقيد والتعمية وتعمد ما يكسب المعنى غموضاً مشرفاً له وزائداً في فضله، وهذا خلاف ما عليه الناس. ألا تراهم قالوا: إن خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك، أسبق من لفظه إلى سمعك، فالجواب أني لم أرد هذا الحد من الفكر والتعب، وإنما أردت القدر الذي يحتاج إليه في نحو قوله:

* فإن المسك بعض دم الغزال *

(1) النبذ: الطرح وإلقاء الشيء وفعله من باب ضرب.

وقوله:

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

وقوله:

رأيتك في الذين أرى ملوكاً كأنك مستقيم في محال

وقول النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقوله:[1]

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وقول البحتري:

ضحوك إلى الأبطال وهو يروعهم وللسيف حد حين يسطو ورونق

وقول امرىء القيس:

* بمنجرد قيد الأوابد هيكل *[2]

وقوله:

ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب جذع البصيرة قارح الأقدام[3]

---

(1) أي الشاعر المجهول لا النابغة.

(2) المنجرد من الخيل: الأجرد وهو قصير شعر الجلد، وذلك ممدوح فيها، والأوابد جمع آبدة: الوحوش والطيور التي تقيم في مكان واحد لا تظعن صيفاً ولا شتاء، ويستعار لفظ «قيد الأوابد» للفرس الجواد كأنه لسرعة عدوه وإدراكه لها قيد يمنعها الفرار حتى كأنها مقيدة به.

(3) الجذع بالتحريك: الحدث والشاب الذي استكمل قوته، وأصله في الأنعام والدواب وتختلف السن فيها، وجمعه جذاع وجذعان بضم الجيم وكسرها، والقارح من ذي الحافر كالبازل من الإبل ما قرح نابه أي طلع، وهو الذي بلغ نهاية السن التي ليس بعدها سن تسمى ويكون في التاسعة وما بعدها. وإذا استعمل اللفظان في الناس يراد بالجذع الحدث النشيط وبالقارح العاقل المجرب، قال الحريري: وبرز فيها الجذع على القارح.

فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعنى، كالجوهر في الصدف لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه، وكالعزيز المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه؛ ثم ما كل فكر يهتدي إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه، ولا كل خاطر يؤذن له في الوصول إليه، فما كل أحد يفلح في شق الصدفة، ويكون في ذلك من أهل المعرفة، كما ليس كل من دنا من أبواب الملوك فتحت له وكان:

من النفر البيض الذين إذا اعتزوا وهاب رجال حلقة الباب قعقعوا[1]

أو كما قال:

تفتح أبواب الملوك لوجهه بغير حجاب دونه أو تملق

وأما التعقيد فإنما كان مذموماً لأجل أن اللفظ لم يرتب الترتيب الذي يمثله تحصل الدلالة على الغرض، حتى احتاج السامع أن يطلب المعنى بالحيلة ويسعى إليه من غير الطريق كقوله:

وكذا اسم أغطية العيون جفونها من أنها عمل السيوف عوامل

وإنما ذم هذا الجنس لأنه أحوجك إلى فكر زائد على المقدار الذي يجب في مثله[2]، وكدك بسوء الدلالة، وأودع المعنى لك في قالب غير مستو ولا مملس، بل خشن مضرس، حتى إذا رمت إخراجه منك عسر عليك، وإذا خرج خرج مشوه الصورة ناقص الحسن.

هذا، وإنما يزيد الطلب فرحاً بالمعنى، وأنساً به، وسروراً بالوقوف عليه، إذا كان لذلك أهلاً. فأما إذا كنت معه كالغائص في البحر يحتمل المشقة العظيمة، ويخاطر بالروح، ثم يخرج الخرز فالأمر بالضد مما بدأت به. ولذلك كان أحق أصناف التعقيد بالذم ما يتعبك ثم لا يجدي عليك، ويؤرقك ثم لا يروق لك، وما

(1) قعقعوا أي حركوا الحلقة التي هابها غيرهم ليسمع صوت قعقعتها فيفتح لهم كدأبهم وعاداتهم.

(2) مثله بغير تعقيد قول عبد الحميد بك الرافعي الطرابلسي المعاصر:

* بين السيوف وعينيها مناسبة من أجلها قيل للأغماد أجفان *

سبيله إلا سبيل البخيل الذي يدعوه لؤم في نفسه، وفساد في حسه، إلى أن لا يرضى بضعته في بخله، وحرمان فضله، حتى يأبى التواضع ولين القول فيتيه ويشمخ بأنفه، ويسوم المتعرض له باباً ثانياً من الاحتمال تناهياً في سخفه، أو كالذي لا يؤيسك من خيره في أول الأمر فتستريح إلى اليأس، ولكنه يطمعك ويسحب على المواعيد الكاذبة، حتى إذا طال العناء وكثر الجهد تكشف عن غير طائل، وحصلت منه على ندم لتعبك في غير حاصل، وذلك مثل ما تجده لأبي تمام من تعسفه في اللفظ وذهابه به في نحو من التركيب لا يهتدي النحو إلى إصلاحه، وإغراب في الترتيب يعمى الأعراب في طريقه ويضل في تعريفه، كقوله:

ثانيه في كبد السماء ولم يكن لاثنين ثان إذ هم في الغار[1]

وقوله:

يدي لمن شاء رهن من بذق جرعا من راحتيك درى ما الصاب والعسل[2]

[التعقيد والكلام البليغ المتوقف على دقة الفكر]

ولو كان الجنس الذي يوصف من المعاني باللطافة ويعد في وسائط

---

(1) البيت من قصيدة في مدح المعتصم، وقيل: المأمون، وفي رواية «لاثنين ثاني» ورواية أخرى «ثانياً» بالنصب مع تسهيل همزة (إذ) والرواية الرابعة «لإثنين ثالثاً» وقبل البيت قوله:

وأعلم بأنك إنما تلقيهم في بعض ما حفروا من الآبار
لو لم يكد للمامري قبيله ما خار عجلهم بغير خوار
وثمود لو لم يدهنوا في ربهم لم ترم ناقته بسهم قدار
ولو شفا الأحشاء من برحائها أن صار بابك جار مازيار

وبعده البيت، والبرحاء شدة الأذمي وبابك ومازيار علمان لرجلين.

(2) البيت من قصيدة يمدح بها المعتصم أيضاً وقيل البيت:

كان أمواله والبذل يمحقها نهب تعسفه التبذير والنفل
شرست بل لنت قانيت ذاك بذا فأنت لا شك فيه السهل والجبل

وفي الديوان المطبوع «تقسمه التبذير أو نفل» والنفل بالتحريك: الغنيمة والهبة والزيادة وفيه أيضاً «فيك السهل والجبل» بكاف الخطاب.

العقود[1] لا يحوجك إلى الفكر ولا يحرك من حرصك على طلبه بمنع جانبه، وببعض الإدلال عليك، وإعطائك الوصل بعد الصد، والقرب بعد البعد، لكان «باقلّي حارّ» وبيت معنى هو عين القلادة وواسطة العقد واحداً[2] ولسقط تفاضل السامعين في الفهم والتصور والتبيين. وكان كل من روى الشعر عالماً به وكل من حفظه ـ إذا كان يعرف اللغة على الجملة ـ ناقداً في تمييز جيده من رديئه. وكان قول من قال:

زوامل للأشعار لا علم عندهم ... يجيدها إلا كعلم الأباعر

وكقول ابن الرومي:

قلت لمن قال لي عرضت على الأخـ ... ـفش ما قلته فما حمده[3]
قصرت بالشعر حين تعرضه ... على مبين العمى إذا انتقده
ما قال شعراً ولا رواه فلا ... تغلبه كان لا ولا أسده
فإن يقل إنني رويت فكالدفـ ... ـتر جهلا بكل ما اعتقده

وما أشبه ذلك دعوى[4] غير مسموعة ولا مؤهلة للقبول فإنما أرادوا بقولهم «ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك» أن يجتهد المتكلم في ترتيب اللفظ وتهذيبه وصيانته من كل ما أخل بالدلالة، وعاق دون الإبانة، ولم يريدوا أن خير الكلام ما كان غفلاً مثل ما يتراجعه الصبيان ويتكلم به العامة في السوق.

هذا ـ وليس إذا كان الكلام في غاية البيان وعلى أبلغ ما يكون من الوضوح أغناك ذاك عن الفكرة إذا كان المعنى لطيفاً، فإن المعاني الشريفة اللطيفة لا بد

(1) الوسائط جمع واسطة ما كان من الجوهر في وسط العقد وهو أجوده.
(2) الباقلي بتشديد اللام والقصر ويمد: الفول أي لكان نداء بائع الفول السخن بهذه الكلمة «باقلّي حار» وبيت شعر هو بحيث وصفه من الحسن متساويين لا تفاضل بينهما.
(3) يريد علي بن سليم الأخفش والأبيات من قصيدة طويلة مطلعها:
رقاب أهل الحلوم معتمدة ... مقصودة بالهوان معتمدة
(4) كلمة دعوى خبر قوله: وكان قول من قال الخ.

فيها من بناء ثان على أول، ورد تالٍ إلى سابق. أفلست تحتاج في الوقوف على الغرض من قوله: «كالبدر أفرط في العلو» إلى أن تعرف البيت الأول فتتصور حقيقة المراد منه ووجه المجاز في كونه دانياً شاسعاً، وترقم ذلك في قلبك ثم تعود إلى ما يعرض البيت الثاني عليك من حال البدر ثم تقابل إحدى الصورتين بالأخرى وترد البصر من هذه إلى تلك وتنظر إليه كيف شرط في العلو الإفراط ليشاكل قوله «شاسع» لأن الشسوع هو الشديد من البعد، ثم قابله بما لا يشاكله من مراعاة التناهي في القرب فقال «جد قريب». فهذا هو الذي أردت بالحاجة إلى الفكر، وبأن المعنى لا يحصل لك إلا بعد انبعاث منك في طلبه واجتهاد في نيله.

[مكانة ما لا يدرك إلا بالتعب]

هذا، وإن توقفت في حاجتك أيها السامع للمعنى إلى الفكر في تحصيله فهل تشك في أن الشاعر الذي أداه إليك، ونشر بَزّه لديك، قد تحمل فيه المشقة الشديدة، وقطع إليه الشقة البعيدة، وأنه لم يصل إلى دره حتى غاص، وأنه لم ينل المطلوب حتى كابد منه الامتناع والاعتياس؟؟ ومعلوم أن الشيء إذا علم أنه لم ينل في أصله إلا بعد التعب، ولم يدرك إلا باحتمال النصب، كان للعلم بذلك من أمره من الدعاء إلى تعظيمه، وأخذ الناس بتفخيمه، ما يكون لمباشرة الجهد فيه، وملاقاة الكرب دونه، وإذا عثرت بالهوينا على كنز من الذهب لم تخرجك سهولة وجوده إلى أن تنسى جملة أنه الذي كد الطالب، وحمَّل المتاعب. حتى إن لم تكن فيك طبيعة من الجود تتحكم عليك، ومحبة للثناء تستخرج النفيس من يديك كان من أقوى حجج الضنّ الذي يخامر الإنسان أن تقول: «إن لم يكدني فقد كد غيري» كما يقول الوارث للمال المجموع عفواً إذا ليم على بخله به، وفرط شحه عليه: إن لم يكن كسبي وكدي، فهو كسب والدي وجدي، ولئن لم ألق فيه عناء لقد عانى سلفي فيه الشدائد، ولقوا في جمعه الأمرين[1] أفأضيع ما

(1) لقي منه الأمرّين. ونزل به الأمرّان. مثل يضرب في لقاء الشعر وعظائم الأمور. والأمرّان الهرم والمرض أو الفقر والهرم.

ثمروه، وأفرق ما جمعوه، وأكون كالهادم لما أنفقت الأعمار في بنائه، والمبيد لما قصرت الهمم على إنمائه.

وإنك لا تكاد تجد شاعراً يعطيك في المعاني الدقيقة من التسهيل والتقريب، ورد البعيد الغريب إلى المألوف القريب، ما يعطي البحتري ويبلغ في هذا مبلغه. فإنه ليروض لك المهر الأرن رياضة الماهر[1] حتى يعنق من تحتك إعناق القارح المذلل[2] وينزع من شماس الصعب الجامح، حتى يلين لك لين المنقاد المطيع، ثم لا يمكن ادعاء أن جميع شعره في قلة الحاجة إلى الفكر، والغنى عن فضل النظر، كقوله:

فـــؤادي مـــنـــك مـــلآن وســـري فـــيـــك إعـــلان

وقوله:

* عـــن أي ثـــغـــر تـــبـــتـــســـم *

وهل ثقل على المتوكل قصائده الجياد حتى قل نشاطه لها واعتناؤه بها إلا لأنه لم يفهم معانيها كما فهم معاني النوع النازل الذي انحط له إليه؟ أتراك تستجيز أن تقول إن قوله: * منى النفس في أسماء لو تستطيعها *[3] من جنس

(1) الأرن: البطر المرح معنى ووزناً وفعلاً.

(2) أعنق الفرس: أسرع وسار العنق بالتحريك سير فسيح واسع للإبل والدواب. والقارح: ما قرح نابه أي طلع.

(3) مطلع قصيدة من غرر قصائده في مدح المتوكل قال:

منى النفس في أسماء لو تستطيعها ... بها وجدها من غادة وولوعها

وقد راعني منها الصدود وإنما ... تصد لشيب في عذارى يروعها

ومنها في المدح:

ولما رعى سرب الرعية ذادها ... عن الجدب مخضر التلاع مريعها

علمت يقيناً مذ توكل جعفر ... على اللّه فيها إنه لا يضيعها

التلاع بالكسر جمع تلعة بالفتح وهي مسيل الماء وما اتسع من فوهة الوادي والقطعة المرتفعة من الصحراء، والمربع كالخصيب وزناً ومعنى ومنها فيه:

وفرسان هيجاء تجيش صدورها ... بأحقادها حتى تضيق دروعها

المعقد الذي لا يحمد، وإن هذه الضعيفة الأسر[1] الواصلة إلى القلوب من غير فكر، أولى بالحمد وأحق بالفضل.

[سبب قبح الكلام المعقد]

هذا ـ والمعقد من الشعر والكلام لم يذم لأنه مما تقع حاجة فيه إلى الفكر على الجملة، بل لأن صاحبه يعثر فكرك في متصرّفه[2] ويشيك طريقك إلى المعنى[3] ويوعر مذهبك نحوه. بل ربما قسم فكرك، وشعب ظنك[4] حتى لا تدري من أين تتوصل وكيف تطلب.

وأما الملخص فيفتح لفكرتك الطريق المستوي ويمهده، وإن كان فيه تعاطف أقام عليه المنار، وأوقد فيه الأنوار، حتى تسلكه سلوك المتبين لوجهته، وتقطعه قطع الواثق بالنجح في طيته[5] فترد الشريعة[6] زرقاء والروضة غناء[7] فتنال الري، وتقطف الزهر الجني[8]، وهل شيء أحلى من الفكرة إذا استمرت

تقتل من وتر أعز نفوسها ... عليها بأيد ما تكاد تطيعها
إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها ... تذكرت القربى ففاضت دموعها
شواجر أرماح تقطع بينهم ... شواجر أرحام ملوم قطوعها
فلو لا أمير المؤمنين وطوله ... لعادت جيوب والدماء دروعها

والقصيدة كلها محاسن ولكن ينقل عن المتوكل أنه قال: ما زال يقول: «عهاعها» حتى كدنا نقيء! وهذا هو مراد المصنف بقوله: لأنه لم يفهم معانيها الخ.

(1) الأسر إحكام الخلقة ومنه: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: 28].
(2) عثره وأعثره: جعله يعثر.
(3) أشاك الطريق: أدخل الشوك فيه.
(4) من شعب الشيء إذا فرقه.
(5) الطية بالكسر: اسم هيئة من طوى الأرض في سفره، قال شيخنا في طيته: فيما طوى قصده عليه، أقول وفي الأساس: مضى لطيته وأين طيتك وأمتك «بالفتح أي ما تؤمه وتقصده» وبعدت عنا طيته وهي الجهة التي إليها يطوي البلاد.
(6) الشريعة: مورد الشاربة من النهر.
(7) الغناء بالتشديد: كثيرة الشجر، يقال عن الوادي يغن بفتح الغين إذا كثر شجره.
(8) هو ما جني من ساعته فهو غض ليس بذابل.

وصادفت نهجاً مستقيماً، ومذهباً قويماً، وطريقة تنقاد، وتبينت لها الغاية[1] فيما ترتاد، فقد قيل: قرة العين وسعة الصدر وروح القلب وطيب النفس، من أربعة أمور: الاستبانة للحجة، والأنس بالأحبة، والثقة بالعدة، والمعاينة للغاية. وقال الجاحظ في أثناء فصل يذكر فيه ما في الفكر والنظر من الفضيلة: «وأين تقع لذة البهيمة بالعلوفة[2]، ولذة السبع بلطم الدم[3] وأكل اللحم؛ من سرور الظفر بالأعداء، ومن انفتاح باب العلم بعد إدمان قرعه، وبعد فإذا أعدت الحلبات[4] لجري الجياد، ونصبت الأهداف ليعرف فضل الرماة في الأبعاد والسَّداد، فرهان العقول التي تستبق، ونضالها الذي تمتحن قواها في تعاطيه هو الفكر والروية والقياس والاستنباط».

ولن يبعد المدى في ذلك ولا يدق المرمى إلا بما تقدم من تقرير الشبه بين الأشياء المختلفة. فإن الأشياء المشتركة في الجنس، المتفقة في النوع، تستغني بثبوت الشبه بينها، وقيام الاتفاق فيها، عن تعمُّل وتأمل في إيجاب ذلك لها، وتثبيته فيها، وإنها لصنعة تستدعي جودة القريحة والحذق، الذي يلطف ويدق، في أن يجمع أعناق المتنافرات المتباينات في ربقة[5] ويعقد بين الأجنبيات معاقد نسب وشبكة[6] وما شرفت صنعة ولا ذكر بالفضيلة عمل إلا لأنهما يحتاجان من دقة

(1) الغاية فاعل تبينت.

(2) العلوفة بالفتح: ما تأكله الدابة وجمعه علف بضمتين، والعليفة والعلوفة: الناقة تعلفها ولا ترسلها إلى المرعى «ش» وفي المصباح: العلوفة وزان حلوب وركوبة: ما يعلف من الغنم وغيرها يطلق بلفظ واحد على الواحدة والجمع وهو من علف الدابة علفاً من باب ضرب واسم المعلوف علف بفتحتين وجمعه علاف كجبل وجبال.

(3) لطع الدم ـ من باب فتح ـ شربه أو لحسه.

(4) الحلبات جمع حلبة بالفتح وعلى مجال الخيل للسباق، ويقال للخيل التي تأتي من كل أوب حلبة (أساس).

(5) الربق بالكسر (وازن حمل) حبل فيه عدة عرى تشد به البهم وكل عروة من العرا التي فيه تسمى ربقة ويجمع أيضاً على رباق، وربقت الشاة (من باب قتل) أدخلت عنقها في الربقة فهي ربيقة ومربوقة ومن المجاز: ربقته في الأمر. وفي الحديث: «خلع ربقة الإسلام من عنقه».

(6) الشبكة بالضم نسب القرابة ولحمتها «ش».

الفكر ولطف النظر ونفاذ الخاطر إلى ما لا يحتاج إليه غيرهما، ويحتكمان على من زاولهما، والطالب لهما في هذا المعنى[1] ما لا يحتكم ما عداهما. ولا يقتضيان ذلك إلا من جهة إيجاد الائتلاف في المختلفات، وذلك بين لك فيما تراه من الصناعات وسائر الأعمال التي تنسب إلى الدقة، فإنك تجد الصورة المعمولة فيها كلما كانت أجزاؤها أشد اختلافاً في الشكل والهيئة، ثم كان التلاؤم بينها مع ذلك أتم، والائتلاف أبين، كان شأنها أعجب، والحذق لمصورها أوجب.

وإذا كان هذا ثابتاً موجوداً، ومعلوماً معهوداً، من حال الصور المصنوعة، والأشكال المؤلفة، فاعلم أنها القضية في التمثيل واعمل عليها، واعتقد صحة ما ذكرت لك من أخذ الشبه للشيء مما يخالفه في الجنس، وينفصل عنه من حيث ظاهر الحال حتى يكون[2] هذا شخصاً يملأ المكان وذاك معنى لا يتعدى الأفهام والأذهان، وحتى أن هذا إنسان يعقل، وذاك جماد أو موات لا يتصف بأنه يعلم أو يجهل، وهذا نور شمس يبدو في السماء ويطلع. وذاك معنى كلام يوعى ويسمع، وهذا روح يحيى به الجسد، وذاك فضل ومكرمة تؤثر وتحمد، كما قال:

إن المكارم أرواح يكون لها ... آل المهلب دون الناس أجساداً

وهذا مقال متعصب منكر للفضل حسود، وذاك نار تلتهب في عود، وهذا مخلاف، وذاك ورق خلاف[3] كما قال ابن الرومي:

بذل الوعد للاخلاء سمحاً ... وأبى بعد ذاك بذل العطاء
فغدا كالخلاف يورق للعيـ ... ـن ويأبى الإثمار كل الإباء

وهذا رجل يروم العدو تصغيره والإزراء به فيأبى فضله إلا ظهوراً، وقدره إلا سمواً، وذاك شهاب من نار تصوب وهي تعلو، وتخفض وهي ترتفع، كما قال أيضاً:

---

(1) أي دقة الفكر ولطف النظر.
(2) قوله حتى يكون: غاية في الانفصال «ش».
(3) الخلاف بالكسر شجر الصفصاف.

ثم حاولت بالمثيل تصغـ ـري فما زدتني سوى التعظيم
كالذي طأطأ الشهاب ليخفي وهو أدنى له إلى التضريم

وأخذ هذا المعنى من كلام في حكم الهند وهو أن الرجل ذا المروءة والفضل ليكون خامل المنزلة غامض الأمر فما تبرح به مروءته وعقله حتى يتبين ويعرف كالشعلة من النار التي يصوبها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعاً.

هذا هو الموجب للفضيلة، والداعي إلى الاستحسان. والشفيع الذي أحظى التمثيل عند السامعين، واستدعى له الشغف والولوع من قلوب العقلاء الراجحين، ولم تأتلف هذه الأجناس المختلفة للمتمثل، ولم تتصادف[1] هذه الأشياء المتعادية على حكم المشبه، إلا لأنه لم يراع ما يحضر العين، ولكن ما يستحضر العقل، ولم يعن بما تنال الرؤية، بل بما تعلق الروية[2] ولم ينظر إلى الأشياء من حيث توعى فتحويها الأمكنة، بل من حيث تعيها القلوب الفطنة، ثم على حسب دقة المسلك، إلى ما استخرج من الشبه ولطف المذهب، وبعد التصعد إلى ما حصل من الوفاق استحق مدرك[3] ذلك المدح، واستوجب التقديم، واقتضاك العقل أن تنوه بذكره، وتقضي بالجني في نتائج فكره[4]، نعم وعلى حسب المراتب في ذلك وأعطيته في بعض منزلة الحاذق الصنع[5]، والملهم المؤيد، والألمعي المحدث[6]، الذي سبق إلى اختراع نوع من الصنعة، حتى يصير إماماً ويكون مَن بعده تبعاً له وعيالاً عليه، وحتى تعرف تلك الصنعة بالنسبة إليه، فيقال: صنعة فلان وعمل فلان. ووضعته في بعض موضع المتعلم الذكي،

(1) تتلاقى.
(2) الروية: النظر والتفكر، وتعلق بفتح التاء والعين وتشديد اللام أصله تتعلق أي: تهوى ويقال: علق بالمرأة «كتعب» وتعلقها إذا هويها.
(3) ضبطه شيخنا بصيغة اسم المفعول من أدرك.
(4) الجنى بالفتح مصدر جنى الثمرة والثمرة نفسها وكل ما يجنى ما دام غضاً.
(5) يقال: صنع اليدين وصنعهما بكسر النون بالتحريك أي حاذق ماهر.
(6) الألمعي: الذكي المتوقد، والمحدث بالفتح والتثقيل: الصادق الحدس كأنما حدث بما ظن، والمحدثون بالفتح الملهمون وكان عمر بن الخطاب منهم كما صح في الحديث.

والمقتدي المصيب في اقتدائه الذي يحسنُ التشبه بمن أخذ عنه، ويجيد حكاية العمل الذي استفاد، ويجتهد أن يزداد.

[شرط حسن التأليف بين مختلفي الجنس]

واعلم أني لست أقول لك أنك متى ألفت الشيء ببعيد عنه في الجنس على الجملة فقد أصبت وأحسنت، ولكن أقوله بعد تقييد، وبعد شرط، وهو أن تصيب بين المختلفين في الجنس، وفي ظاهر الأمر شبهاً صحيحاً معقولاً، وتجد للملائمة والتأليف السوي بينهما مذهباً وإليهما سبيلاً، وحتى يكون ائتلافهما الذي يوجب تشبيهك[1] من حيث العقل والحدس، في وضوح اختلافهما من حيث العين والحس، فأما أن تتكره الوصف وتروم أن تصوره حيث لا يتصور فلا. لأنك تكون في ذلك بمنزلة الصانع الأخرق، يضع في تأليفه وصوغه الشكل بين شكلين لا يلائمانه ولا يقبلانه، حتى تخرج الصورة مضطربة، وتجيء فيها نتوٌّ[2]، ويكون للعين عنها من تفاوتها نُبوّ، وإنما قيل شبهت ولا تعني في كونك مشبهاً أن تذكر حرف التشبيه أو تستعير، إنما تكون مشبهاً بالحقيقة بأن ترى الشبه وتبينه، ولا يمكنك بيان ما لا يكون، وتمثيل ما لا تتمثله الأوهام والظنون.

ولم أرد بقولي إن الحذق في إيجاد الائتلاف بين المختلفات في الأجناس أنك تقدر أن تحدث هناك مشابهة ليس لها أصل في العقل، وإنما المعنى أن هناك مشابهات خفية بدق المسلك إليها؛ فإذا تغلغل فكرك فأدركها فقد استحققت الفضل، ولذلك يشبه المدقق في المعاني كالغائص[3] على الدر. ووزان ذلك أن القطع التي يجيء من مجموعها صورة الشنف[4] والخاتم أو غيرهما من الصور المركبة من أجزاء مختلفة الشكل لو لم يكن

(1) يوجب التشبيه: يكون منشأ له والاعتبار الذي سوّغه (ش).
(2) قوله «فيها نتو» حال من ضمير تجيء وهو تشديد الواو وأصله بالهمزة نتوء.
(3) كالغائص حكاية للتشبيه، ولعل أصله: بالغائص لأنه لا يحتاج إلى التقدير.
(4) الشنف بالفتح: القرط الأعلى ج شنوف.

بينها تناسب، أمكن ذلك التناسب أن يلائم بينها الملائمة المخصوصة ويوصل الوصل الخاص لم يكن ليحصل لك من تأليفها الصورة المقصودة.

ألا ترى أنك لو جئت بأجزاء مخالفة لها في الشكل ثم أردتها على أن تصير إلى الصورة التي كانت من تلك الأولى طلبت ما يستحيل، فإنما استحققت الأجرة على الغوص وإخراج الدر، لا أن الدر كان بك، واكتسى شرفه من جهتك، ولكن لما كان الوصول إليه صعباً وطلبه عسيراً ثم رزقت ذلك وجب أن يجزل لك ويكبر صنيعك.

ألا ترى أن التشبيه الصريح إذا وقع بين شيئين متباعدين في الجنس ثم لطف وحسن لم يكن ذلك اللطف وذلك الحسن إلا لاتفاق كان ثابتاً بين المشبه والمشبه به من الجهة التي بها شبهت، إلا أنه كان خفياً لا ينجلي إلا بعد التألق في استحضار الصور وتذكرها وعرض بعضها على بعض، والتقاط النكتة المقصودة منها، وتجريدها من سائر ما يتصل بها، نحو أن يشبه الشيء بالشيء في هيئة الحركة فتطلب الوفاق بين الهيئة والهيئة، والهيئةُ مجردة من الجسم وسائر ما فيه من اللون وغيره من الأوصاف كما فعل ابن المعتز في تشبيه البرق حيث قال:

وكأنَّ البرق مصحف قار فانطباقاً مرَّة وانفتاحا

[التشبيه المتوقف على دقة الفكر]

لم ينظر من جميع أوصاف البرق ومعانيه إلا إلى الهيئة التي تجدها العين له عن انبساط يعقبه انقباض، وانتشار يتلوه انضمام، ثم فكر في نفسه عن هيئات الحركات لينظر أيها أشبه بها فأصاب ذلك فيما يفعله القارىء من الحركة الخاصة في المصحف إذا جعل يفتحه مرة ويطبقه أخرى، ولم يكن إعجاب هذا التشبيه لك وإيناسه إياك لأن الشيئين مختلفان في الجنس أشد الاختلاف فقط، بل لأن حصل بإزاء الاختلاف اتفاق كأحسن ما يكون وأتمه، فبمجموع الأمرين ـ شدة ائتلاف في شدة اختلاف ـ حلا وحسن، وراق وفتن.

ويدخل في هذا الموضع الحكاية المعروفة في حديث عدي بن الرقاع: قال

جرير: أنشدني عدي: * عرف الديار توهماً فاعتادها *[1]. فلما بلغ إلى قوله: * تزجي أغن كأنّ إبرة روقه *[2]. رحمته وقلت قد وقع، ما عساه يقول وهو أعرابي جلف جاف؟ فلما قال: * قلم أصاب من الدواة مدادها * استحالت الرحمة حسداً[3]. فهل كانت الرحمة في الأولى، والحسد في الثانية إلا أنه رآه حين افتتح التشبيه قد ذكر مالا يحضر له في أول الفكر وبديهة الخاطر وفي القريب من محل الظن شبهٌ[4] وحين أتم التشبيه وأداه صادفة قد ظفر بأقرب صفة من أبعد موصوف، وعثر على خبيء مكانه غير معروف؟ وعلى ذلك استحسنوا قول الخليل، في انقباض كف البخيل:

كفاك لم تخلقا للندى ولم يك بخلهما بدعه
فكف عن الخير مقبوضة كما نقصت مائة سبعه
وكف ثلاثة آلافها وتسع مئيها لها منعه[5]

(1) تمام البيت:

* من بعد ما شمل البلى إبلادها * والإبلاد: قطع الأرض عامرة أو غامرة أو الآثار في قول بعضهم والقصيدة في مدح الوليد بن عبد الملك، ومنها:

ولقد أراد اللّه إذ ولاكها من أمة إصلاحها ورشادها

ومنها:

تأتيه أسلاب الأعزة عنوة قسراً ويجمع للحروب عتادها
وعلمت حتى ما أسائل عالماً عن علم واحدة لكي أزدادها

(2) الإزجاء: السَّوق، والأغن: ذو الغنة وهي صوت يتردد بين اللهاة والأنف كنون «منك» وكذلك صوت الظبي ولذلك غلب عليه لقب الأغن، والروق: القرن، وابرته: رأسه وتكون سوداء.

(3) يقال إن الفرزدق كان حاضراً إنشاد القصيدة وأنه عندما بلغ عدي قوله: تزجي أغن الخ قال (أي الفرزدق) لجرير: ما تراه يتلب بهذا تشبيهاً فقال جرير:

* قلم أصاب من الدواة مدادها *

قال فما رجع الجواب حتى قال عدي ذلك، فقال: ويحك لكأن سمعك في فؤاده مخبوءاً فقال جرير: أسكت فقد شغلني سبك عن جيد الكلام (ش).

(4) شبه فاعل يحضر.

(5) الأبيات من المتقارب وفي الأول الخرم ومعناها أنه قابض كلتا يديه وبيانه في حل مسألة=

[مكانة ما لا يدرك إلا بالتعب]

وذلك أنه أراك شكلاً واحداً في اليدين، مع اختلاف العددين ومع اختلاف المرتبتين في العدد أيضاً لأن أحدهما من مرتبة العشرات والآحاد والآخر من مرتبة المئين والألوف. فلما حصل الاتفاق كأشد ما يكون في شكل اليد مع الاختلاف كأبلغ ما يوجد في المقدار والمرتبة من العدد كان التشبيه بديعاً. قال المرزباني: وهذا مما أبدع فيه الخليل لأنه وصف انقباض اليدين بحالين من الحساب مختلفين في العدد متشاكلين في الصورة. وقوله هذا إجمال ما فصلته.

ومما ينظر إلى هذا الفصل ويداخله ويرجع إليه حين تحصيله الجنس[1] الذي يراد فيه كون الشيء من الأفعال سبباً لضده كقولنا: أحسن من حيث قصد الإساءة، ونفع من حيث أراد الضر. إذا لم يقنع التشاغل بالعبارة الظاهرة، والطريقة المعروفة، وصور في نفس الإساءة الإحسان، وفي البخل الجود، وفي المنع العطاء، وفي موجب الذم موجب الحمد، وفي الحالة التي حقها أن تعد على الرجل حكم ما يعتد له، والفعل الذي هو بصفة ما يعاب وينكر، صفة ما يقبل المنة ويشكر، فيدل ذلك بما يكون فيه من الوفاق الحسن مع الخلاف البين على حذق شاعره، وعلى جودة طبعه وحدة خاطره، وعلو مصعده وبعد غوصه، إذا لم يفسده بسوء العبارة، ولم يخطئه التوفيق في تلخيص الدلالة، وكشف تمام الكشف عن سَروِ المعنى وسره[2] بحسن البيان وسحره. مثال ما كان من الشعر

= العقد وهي أن اليمنى التي يعقدون بها للآحاد والعشرات إذا أردت أن يعقد بها ٩٣ وهي المائة تنقصها سبعة تقبض الخنصر والبنصر والوسطى بحيث تكون الأظافر في باطن الكف وهي عقدة الثلاثة وتقبض السبابة وتجعل ظفرها ظاهراً (لأن ظهور الأظافر للعشرات وإخفاءها للآحاد) وتضع الإبهام على ظهرها وهي عقدة التسعين فتلك ٩٣ ما حصلت إلا من قبض الكف. وأما اليسرى التي يعقد بها للمئين والألوف تتكون مقبوضة بعقد ٣٩٠٠ وذلك أن تقبض الخنصر والبنصر والوسطى وهي عقدة ٣٠٠٠ وتقبض السبابة وتحلق عليها بالإبهام (كعقدة ٩٠ في اليمنى) وهي عقدة ٩٠٠ فتلك ٣٩٠٠ حصلت بقبض اليد اليسرى أيضاً.

(1) الجنس مبتدأ وقوله قبله: ومما ينظر إلى هذا الفصل خبره.

(2) السرو: الفضل.

بهذه الصفة قول أبي العتاهية:

جُزيَ البخيل عليَّ صالحة ... عني لخفته على ظهري
أعلى وأكرم عن يديه يدي ... فعلت ونزه قدره قدري
ورُزقتُ من جدواه عافية ... أن لا يضيق لشكره صدري
وغنيتُ خِلواً من تفضله ... أحنو عليه بأحسن العذر
ما فاتني خير امرىء وضعت ... عني يداه مؤنة الشكر

ومن اللطيف مما يشبه هذا قول الآخر:

أعتقني سوء ما صنعت من الرْ ... رِق فيا بردها على كبدي
فصرت عبداً للسوء فيك وما ... أحسن سوء قبلي إلى أحد

obeikandl.com